

دولة بنى نصر أو بنى الأحمر في غرناطة

٦٢٦ - ٨٩٧ هـ / ١٢٣٢ - ١٤٩٢ م

بعد انصراف أبى العلاء إدريس المأمون من الأندلس مصطحباً معه من بقى من كبار جند الموحدين فى شبه الجزيرة ، بقيت الأندلس بدون حماية يحسب لها حساب ، وبرز فى صفوف المسلمين نفر من الزعماء كل منهم يحاول أن يتزعم ما بقى من المقاتلين فى الأندلس لكى يقيم لنفسه دولة فى هذا الجزء الباقى للمسلمين فى الأندلس ، وكان قد اقتصر على نهر الوادى الكبير وما يقع جنوبه .

وأهم أولئك الزعماء بنو مردنيش أصحاب بلنسية ، وسيف الدولة محمد بن يوسف بن هود الجذامى الملقب بالمتوكل ، ومحمد بن يوسف بن أحمد بن نصر الملقب بالشيخ .

فأما بنو مردنيش فكان يمثلهم عدد من أحفاد محمد بن سعد بن مردنيش أكبرهم أبو جميل زيان بن مدافع بن يوسف بن محمد بن سعد بن مردانيش ، الذى بدأ أمره كاتباً وقائداً لأمير الموحدين ، وكان يتولى أمر بلنسية ، ثم انصرف هذا الأمير وصار الأمر إلى أبى جميل ولم يستطع أبو جميل الثبات أمام « خايمة الأول » ملك أرغون الذى استولى على بلنسية فى صفر ٦٢٦ هـ / سبتمبر ١٢٢٨ م وأما مرسية التى كانت قد تحولت إلى وحدة سياسية قائمة بذاتها وسماها النصارى بمملكة مرسية ، فقد تولى أمرها رجل يسمى أبا بكر عزيز بن أبى مروان ابن خطاب الذى تلقب بضياء الدولة ، ولم تكن لدى هذا الرجل من القوة ما يستطيع به الدفاع عن مملكة مرسية وانتهى الأمر بسقوطها فى يد فرناندو الثالث المعروف بالقديس .

وبقى فى الميدان محمد بن يوسف بن نصر الجذامى بن هود الملقب بالمتوكل ، فحاول أن يجمع حوله كل من وجد فى جنوبى شبه الجزيرة من فرسان المسلمين ، وتمكن لفترة قصيرة من أن يصمد للضغط النصرانى ، وأيده الناس فى الأندلس وقد بدأ نشاطه سنة ٦٢٥ هـ ودخلت فى طاعته مرسية وقرطبة وإشبيلية وغرناطة ومالقة والمرية وعدد آخر من صغار المدن والحصون ، ولو كان هذا الرجل على

شئ من الخبرة السياسية والقدرة على تدبير الأمور لثبت أمره ولاستطاع أن يثبت ولو بعض الوقت للضغط النصراني ، لأن الاتفاق الذى كان قد تم بين مملكتى قشتالة وليون من ناحية ومملكة أرغون من ناحية أخرى فى موضع يسمى بالمرسى كان يقضى بأن ميدان توسع أرغون فى بلاد المسلمين ينبغى أن لا يتعدى مملكة بلنسية فى شرق الأندلس ، وبقيّة شرق الأندلس من مرسية إلى بحر الزقاق كان ميدان توسع مملكة قشتالة وليون ، أما بلاد الغرب مما يلي قلمرية والأشبونة جنوباً ، فقد ترك للبرتغال تتوسع فيه .

وهذا الاتفاق — اتفاق بالمرسى — يدل على أن ملوك النصارى فى شبه الجزيرة كانوا يرون أن قوة الإسلام فى الأندلس قد تلاشت ، وأن مابقى للمسلمين فى شبه الجزيرة أصبح لقمة سائغة للملك النصارى يتقاسمونه فيما بينهم ، ولم يكونوا مخطئين فى هذا التصور ، لأن المسلمين فى الأندلس فى نهاية العصر المرابطى أثبتوا بالفعل أنهم غير جديرين بتلك البلاد التى كان عليهم أن يدافعوا عنها لتظل بلادهم بلاداً عربية وإسلام ، فأما وقد تراخوا وتدابروا على الوجه الذى رأيناه ، فقد كان من المؤكد أن البلاد ستضيع من أيديهم لأن الأرض لا يحوزها إلا الجدير بها ، والجدير بالأرض هو الذى يستطيع الدفاع عن حوزتها وحمايتها من العدوان .

نقول إن سيف الدولة بن هود تصدى لزعامة بلاد الأندلس ، وكان فى يده كما رأينا قدر صالح منها ، ولم يكن الرجل بالجبان ولا قليل الحماس ، ولكنه كان أرعن طائشاً ضعيف الخلق سريعاً إلى الحركة ، وقد بايعه الناس فى رجب ٦٢٥ هـ فى موضع قريب من مرسية يسمى الصخور أو الصخيرات ، ولم يكذ خبر بيعته ينتشر فى الأندلس حتى تقاطر الناس عليه وأصبح له جيش ضخم يستطيع به أن يحمى مابقى للمسلمين فى شبه الجزيرة ، لأن خصمه الذى كان يهدد بلاده ، كان فرناندو الثالث ملك قشتالة وليون ، ولم يكن بالملك القوى أو المؤيد تأييداً كاملاً من جانب أهل بلده ، ولكنه — كما قلنا — كان قليل التدبير ضعيف الخلق أسرع بجيشه إلى ماردة ليدفع عنها غارة البرتغاليين ، وعند موضع يسمى الحنش ، وقعت بينه وبينهم معركة تدل على شجاعته وقلة تدبره فى أن معاً ، فقد هاجم الأعداء واخترق صفوفهم ونفذ إلى خلف الجيش دون أن يرسم إلى ذلك خطة ، ثم

كر راجعاً ليجد أن بقية جنده قد حسبوا أنه انهزم ولّوا على وجوههم ، وبذلك تحول النصر إلى هزيمة ، وأسرع ابن هود بمن معه من أنجاد المقاتلين إلى بلدة مرسية حيث جمع جيشاً كبيراً بلغت عدته ثلاثين ألف مقاتل ، وتمكن من تملك إشبيلية سنة ٦٢٩ هـ ، وولى عليها أخاه « أبا النجاة سالماً » الملقب بعماد الدولة . وفي سنة ٦٣١ هـ طاعت له قرطبة ثم غرناطة ومالقة سنة ٦٣٥ هـ ودخل في طاعته أصحاب مرسية وامتد سلطانه إلى مدينة الجزيرة الخضراء ، وولى الولاة على هذه البلاد ولكنه لم يستطع السيطرة على ما بيده فقام عليه ولاته ، وفي تلك الأثناء تقدم فرناندو الثالث وحاصر قرطبة يريد الاستيلاء عليها ، وكانت قرطبة قد ضعف أمرها واعتمد أهلها على حماية أنفسهم ، وكانت تنقسم قسمين : الشرقية والمدينة ، وكانت المدينة محصنة تماماً ، أما الشرقية فكان في حصونها ضعف وثغرات ، وقد دام حصار قرطبة أشهراً حتى نفذت أقوات المدافعين عن البلد ، ثم تمكن نفر من فرسان قشتالة من دخول الشرقية ، وفي تلك الأثناء أرسل أهل قرطبة إلى محمد بن يوسف الجذامي بن هود يستجدون به ، فأقبل في جيش عدته ثلاثون ألفاً ووقف عند أستجة وهابه فرناندو الثالث ، فلم يجرؤ على اقتحام البلد واستبشر أهلها خيراً ، ولو أراد محمد بن يوسف بن هود إنجاد عاصمة الأندلس الخالدة لفعل ، ولكن الذي حدث أنه خمل عن اللقاء ، وبعد انتظار أسابيع انسحب بقواته من المرية زاعماً أن صاحبها أبا جميل زيان بن مدافع بن مردنيش قد استنجد به ، وتلك خيانة لا يغفرها له التاريخ ، لأنه عقب انسحابه مباشرة وجد القرطبيون أن لا أمل يرجى في الدفاع بعد أن هلكت قواتهم ودخل الجيش القشتالي قرطبة في ٢٣ شوال ٦٣٣ هـ / يونيو ١٢٣٦ م ومن غريب الأمر أن هذا الرجل الذي ضنّ بنفسه عن الموت دفاعاً عن الإسلام والعروبة وتوجه إلى شرق الأندلس لجأ إلى المرية عند عامل من عماله يسمى عبد الله الرميمي ، وكان قد استودع هذا الرجل جارية نصرانية لكي يلم بها عندما يريد ، فأخذها ابن الرميمي لنفسه ، وعندما دخل ابن هود قصره قتله الرميمي خنقاً ، وهكذا هلك ذلك الرجل على النحو الذي يستحقه جزاءً وفاقاً على ما تخلى من أمر الدفاع عن قرطبة عاصمة الخلافة .

قيام دولة غرناطة :

وخلا الأمر بعد ذلك من زعيم يتولى أمر الدفاع ، ولكن رئيساً جديداً يسمى

محمد بن يوسف بن محمد بن أحمد بن نصر وينسب نفسه إلى سعد بن عبادة رئيس الأنصار ، نادى بنفسه رئيساً في قريته أرجونة على بعد ثلاثين كيلومتراً من جيان ، وتوافد عليه جنود الأندلس من كل ناحية ، فانتقل إلى بلدة جيان وأعلن نفسه أميراً على الأندلس واتسع ملكه ، فدخلت في طاعته بلاد الجنوب كلها ، وكان بطبعه رجلاً جاداً مخلصاً حكيماً حسن التدبير ، فاجتمع حوله نفرٌ من خيرة الرجال أهمهم بيت من كبار الفرسان ، وهم بيت أبي الحسن على بن أشقيلولة أصحاب جيان ومالقة ، وقد عاونوه معاونة كبيرة . وأحس محمد بن يوسف بن نصر بأنه في حاجة إلى معقل يعتصم به لأن جيان مدينة مكشوفة ، فوقع اختياره على غرناطة وتقع عند سفح جبل الثلج أو سيرانيفادا ، وفي أعلى الجبل كان يقوم حصن منيع عمّره وسكنه باديس بن حبوس في أول عصر الطوائف ، فاتجه ابن نصر إلى ذلك الحصن ونزل في أخريات رمضان سنة ٦٢٥ هـ أسفل الجبل ، ثم دخل الحصن واستقر به وأخذ يرمم أسواره ويوسع سلطانه ، وتقاطر عليه الناس من كل ناحية ، فأصبح زعيم ما بقي للمسلمين من الأندلس ، وشيئاً فشيئاً يتمكن ذلك الرجل من توسيع نطاق سلطانه ، فدخلت في طاعته بسطة ووادي آش ومالقة والمرية ثم اضطر إلى التخلي عن جيان ، وبعد سقوط قرطبة وجد هذا الرجل أنه لا مفر من أن يدخل في ولاء ملك قشتالة فرناندو الثالث ، فأصبح من أتباعه خلال الفترة الأولى من قيام دولته وأصبح ملزماً بأن يقدم لملك قشتالة مساعدة عسكرية عندما يطلب منه ذلك ، وأن يحضر مجالس الملك في المدن التي يرى عقدها فيها ، وبالفعل نجد أن محمد بن يوسف بن نصر يضطر بناء على المعاهدة التي وقعها مع ملك قشتالة في سنة ١٢٤٦ م إلى إرسال معاونة عسكرية اشتركت في استيلاء القشتاليين على إشبيلية سنة ١٢٤٨ م وقد عوّض ابن الأحمر ذلك بالاستيلاء على طريق الجزيرة الخضراء وجبل طارق ، ولم تحل سنة ١٢٥٥ م حتى كان ملكه في مملكة غرناطة قد استقر وثبت وازداد قوة بمن توافد على بلاد غرناطة من المسلمين من البلاد التي سقطت في أيدي النصارى .

وقد ازدهرت مملكة غرناطة في أيام محمد بن يوسف بن نصر ازدهاراً عظيماً نظراً إلى ما امتاز به من عقلٍ وحكمةٍ وحسن تدبيرٍ ، وما لقي من تأييدٍ زعماء المسلمين وخاصة بنى أشقيلولة الذين انفردوا بالسلطان في وادي آش وبعض النواحي الشمالية من بلاد مملكة غرناطة .

أما بقية بلاد المملكة من أمثال شريش وأركش وشذونة ونيريشة ولبلة والجزيرة الخضراء وجبل طارق، فقد كانت كلها في طاعة ذلك الرجل الذي استطاع بحكمته وبعد نظره أن تعمر تلك المملكة الصغيرة التي قامت سنة ١٢٢٢م بعد ذلك فوق القرنين ونصف، فلم تسقط إلا في يناير سنة ١٤٩٢م. وقد وصفه ابن الخطيب بأنه كان « آية من آيات الله في السذاجة والسلام والجمهورية (أى حب الناس له) ، جندياً ثغرياً شهماً أبداً ، عظيم التجلّد ، رافضاً للدعة والراحة مؤثراً للتقشف والاكتفاء باليسير متبلاً بالقليل ، بعيداً عن التصنّع ، مباشراً للحروب بنفسه ، يلبس الخشن ويؤثر البداوة » ، وتلك صفات جديرة بأن تصل بصاحبها إلى ما وصل إليه محمد بن نصر من النجاح في إقامة دولته.

حكم أبو عبد الله محمد بن نصر الذي تلقب بـ (الغالب بالله) في ٦٢٩ - ٦٧١هـ / ١٢٢٢ - ١٢٧٣ م وتلك فترة طويلة مكنت له من أن يؤسس ملكه ويضع له الأسس التي مكنت له من القيام والثبات وسط العواصف التي أشرنا إليها ، وجدير بالذكر أن الذين طال عمرهم من ملوك غرناطة لم يزد عددهم على ثلاثة أولهم محمد بن نصر هذا ، وابنه محمد بن محمد الملقب بالفقيه ، وأبو الحجاج يوسف بن إسماعيل الذي سنتحدث عنه فيما بعد .

وقد قضى محمد بن نصر أيامه في تثبيت ملكه فأضاف إليه مالقة والمرية ولورقة ، وبعد وفاة فرناندو الأول سنة ١٢٥٢م جدد العهد مع خليفته ألفونسو العاشر ملك قشتالة وليون الملقب بألفونسو العالم .

وبعد وفاة محمد بن نصر خلفه ابنه محمد بن محمد بن نصر المعروف بمحمد الثانى الفقيه (٦٧١ - ٧٠١هـ / ١٢٧٣ - ١٣٠٢ م) وقد كان هذا الرجل قريباً من أبيه في الصفات ولكن ظروفه كانت أسوأ ، لأن ألفونسو العاشر الذى تولى سنة ١٢٥٢م كان رجلاً شديد الحماس الدينى ، يريد أن يقضى على ما بقى للمسلمين في شبه الجزيرة ، وقد تمكّن محمد بن نصر الغالب بالله من تأكيد عهد الولاء معه ، فترك له السلطان على جبال رنّدة وجبال البيرة أى على مملكة غرناطة بحدودها ، ولكن الخلاف وقع في عهد محمد الثانى بينه وبين بنى أشقيلولة أصحاب مالقة ووادى آش ، وقد انتصر عليهم بمعاونة فارس قشتالى يسمى فيليب دينونيو دى لارا ، كان بينه وبين ألفونسو العاشر خلاف ، وأحس محمد الثانى أنه لم يعد

يستطيع الاعتماد على قواه وحدها ، فراسل أبا يوسف يعقوب بن عبد الحق أمير بنى مرين وطلب إليه أن يعاونه بقوة عسكرية ، فعبر أبو يوسف بنفسه إلى الأندلس لكي يشترك في الجهاد ، وبالفعل أعان محمد الفقيه على تثبيت أمره وتم الاتفاق على أن تقيم في مملكة غرناطة قوة من المقاتلين الزناتيين من بنى مرين وغيرهم يرأسهم قائد يسمى شيخ الغزاة ، ومن ذلك الحين سيصبح شيخ الغزاة من كبار الشخصيات في مملكة غرناطة ، وسيقع الخلاف بين بعض شيوخ الغزاة وبعض ملوك غرناطة ، لأن بنى مرين أصبحت لهم مصالح في شبه الجزيرة الإيبيرية ، أى أنهم دخلوا في منطقة النزاع على مصير الأندلس .

وكان محمد بن نصر بن الأحمر قد اتفق مع ألفونسو العاشر على أن يساعده فيما كان يفكر فيه من العدوان على بلاد المغرب ، وبالفعل قام الأسطول القشتالي بمهاجمة أصيلا على الساحل المغربى ثم احتل سببته بمعاونة قوة من ملك غرناطة ، وقد أحفظ بذلك ملوك بنى مرين وأحسوا بأنه لا بد لهم من أن يتحرروا من ملوك غرناطة فأصبح من شروطهم للاشتراك في القتال في الأندلس أن تكون بيدهم الجزيرة الخضراء وجبل طارق ومالقة ، وكانت معقلاً لبنى أشقيلولة أعداء بنى الأحمر .

وفي أيام محمد الفقيه هذا بدأت مشكلة النزاع على مضيق جبل طارق تأخذ شكلها الحازم ، لأن كلاً من مملكة غرناطة ومملكة قشتالة وسلطنة بنى مرين ومملكة أرغون ثم الجمهوريات البحرية الإيطالية وخاصة بيشة وجنوة تنبعت إلى أهمية ذلك الزقاق الذى يعد مفتاح البحر المتوسط ، والسيطرة عليه تتيح لصاحبه قوة بحرية عظيمة ، فينفذ إلى المحيط الأطلسى والساحل الغربى لشبه الجزيرة الإيبيرية . وكانت الأنظار قد بدأت تتطلع إلى ما وراء مياه بحر الظلمات ، وبالفعل نسمع أنه في ذلك العصر المتقدم حاول نفر من الملاحين البندقيين يسمون آل فيفلدى التوغل في ذلك المحيط ، ويبدو أن سفنهم غرقت ولكن الفكرة استقرت في الأذهان على أى حال ، واشتد النزاع بين القوات التى ذكرناها على مصير بحر الزقاق .

وعلى الرغم من كفاية محمد الفقيه واجتهاده في المحافظة على بلاده ، رغم صعوبة ظروفه ، إلا أنه فقد مدينة طريف التى هاجمها واستولى عليها ودافع عنها

دفاع المستميت فارس قشتاليّ يسمى الونسو بيريث دى قزمان الملقب بقزمان الطيب . وقد أضعف قوى محمد الفقيه نزاعه مع بنى أشقيلولة الذين انضموا إلى ملك قشتالة على حليفهم وصهرهم وابن دينهم محمد بن محمد بن نصر بن الأحمر ، وكان لهذا الخلاف أثر سيئ على مصير مملكة غرناطة ، وسنرى أن داء الخلاف هذا سيكون من أكد الأسباب في ضياع مملكة غرناطة ، فبعد بنى أشقيلولة سيقوم بنو سراج بنفس الدور المحزن وسيكون لذلك أثره في ضياع المملكة .

وقبل وفاة محمد الغالب بالله سنة ٦٧١ هـ / ١٢٧٢ م عاد ألفونسو العاشر ملك ليون يهاجم أراضى المسلمين طمعاً في الاستيلاء على مزيد منها ، فاستنجد محمد بن نصر الغالب بالله بأبى يوسف عبد الحق المرينى المعروف بالمنصور سلطان بنى مرين ، فأرسل المنصور قوة من الزناتيين إلى جزيرة طريف في ذى الحجة ٦٧٣ هـ / ١٢٧٥ م أى بعد وفاة محمد الغالب بالله وولاية ابنه محمد ابن محمد بن نصر الملقب بالفقيه ، وبعد قليل لحق به السلطان بنفسه في السنة التالية ، والتقت قوات المسلمين التى تكونت من قوات غرناطة والمدد الذى جاءها من المرينيين ، ووقع اللقاء بينها وبين قوات مملكة قشتالة وليون في ١٥ ربيع الأول ٦٧٤ هـ / سبتمبر ١٢٧٥ م عند أستجة جنوبى قرطبة ، وكان يقود النصارى القائد « دينونيو دى لارا » الذى تسميه النصوص العربية باسم « دننه أو ذونونه » وقد استعد المسلمون للمعركة استعداداً عظيماً وقاد مقدمة الجيش الإسلامى ولّى عهد بنى مرين الأمير يوسف بن أبى يوسف عبد الحق المرينى ، وتحمس المسلمون حماساً عظيماً وخطبهم السلطان المرينى ليزيد حماسهم ، فانقضوا على القوات النصرانية في حماس بالغ أعاد إلى الأذهان حماسهم في موقعتى الزلاقة والأرك على اختلاف في حجم القوات الإسلامية في كل من هذه المعارك ، وانتصر المسلمون انتصاراً كبيراً ومزقوا قوات قشتالة شراً ممزقاً وتقدموا يحاصرون إشبيلية على أمل استعادتها ، وأسرع الملك ألفونسو العاشر يطلب الصلح فأجيب إليه ، وهذا يدل على أن قوة الإسلام في الأندلس كانت لا تزال قادرة على الدفاع عن نفسها ، وأنه لو أتاحت للمسلمين فرص اتحاد الصفوف والوعى إلى أهمية المعركة الدائرة على أرض الأندلس لاستطاعوا أن يثبتوا لاعدائهم وأن يحافظوا على ما بقى لهم من أرض فيها .

وقبل أن نستطرد مع ذكر الحوادث لا بد أن نضيف كلمة نُقدِّر بها محمد بن نصر بن الأحمر الغالب بالله الذى أنشأ هذه المملكة ، واستطاع بما رزقه الله من خلال الشجاعة والذكاء وحسن التدبير وبعد النظر ، أن يؤسِّس هذه المملكة فيما بقى للإسلام من أرض قليلة فى شبه الجزيرة ، ويضع لها من الأسس التى مكنت لها من الصمود للضغط النصرانى المتزايد نحو قرنين ونصف من الزمن .

وقد رأينا ما كان فى بلاء أبى عبد الله محمد بن محمد بن نصر الفقيه الذى كسب موقعة أستجة بالتعاون مع القوات المرينية ، ولم يكن الفقيه ليقل كفاية عن أبيه ، فقد تمكن خلال الفترة الطويلة التى حكمها (٦٧١ - ٧٠١ هـ / ١٢٧٣ - ١٣٠٢ م) من أن يحافظ على مملكته ويزيد من قوتها ، وإن كنا نلاحظ أنه لجأ إلى أمر سيلجأ إليه ملوك غرناطة بين الحين والحين ، وهو التخوف من بنى مرين ومحاولة الانضمام إلى ملوك قشتالة ضدَّهم ، مما أدَّى فى النهاية إلى وقوع النفور بين المرينيين وبنى نصر ، وكان فى النهاية وبالاً على مصير الإسلام فى الأندلس ، ونشير هنا إلى حقيقة تجلت أكثر من مرة خلال هذا التاريخ ، وهى أن أكثر ما أدَّى الإسلام فى الأندلس هو خلاف المسلمين بعضهم مع بعض ، فقد كان ذلك أشد وطأة عليهم من أى خطرٍ آخرَ .

وعندما توفى محمد الفقيه سنة ٧٠١ هـ / ١٣٠٢ م ترك لابنه وخليفته أبى عبد الله محمد الثالث الملقب بالملخوع مملكة قوية زاهرة ، وإن أحاط بها الأعداء من كلِّ جانب ، وجثمت فوق صدرها المصاعب من كل نوع .

ولن يتسع المجال لنذكر كل ملوك بنى نصر فقد كانوا كثيرين ، ولكننا نكتفى بالوقوف عند اثنين منهم ، يعتبران أقدر من تولى أمر هذه المملكة بعد محمد الغالب بالله وابنه محمد الفقيه .

فأما الأول فهو أبو الوليد إسماعيل بن الرئيس أبو سعيد فرج بن أبى الوليد إسماعيل بن محمد بن نصر مؤسس الدولة الذى حكم فيها بين سنتي ٧١٣ - ٧٢٥ هـ / ١٣١٤ - ١٣٢٥ م فقد كان هذا الرجل حازماً بعيد النظر مدركاً لحقائق الوضع فى مملكته الصغيرة ، وقد تمكن بسياسته من الحفاظ على أراضى بلاده ، بل تمكن من التخلص من التبعية لقشتالة ، واستقل بنفسه معتمداً على معاونة

قوات بنى مرين التى كانت قد حصلت على حق الإقامة بصورة مستمرة فى بلاد
غرناطة للاشتراك فى الدفاع عنها عن طريق ما يعرف بمشيخة الغزاة التى
سنتحدث عنها بعد قليل .

وفى أيام أبى سعيد فرج هذا حدث لقاء ثان بين قوات مملكة قشتالة وقوات
الإسلام فى شبه الجزيرة ، وذلك أن ألفونسو العاشر طمع فى بلاد المسلمين من
جديد وأراد أن يعيد مملكة غرناطة إلى الطاعة له ، ولكنه لم يستطع لأن ابنه
شانجو الرابع ثار عليه سنة ٦٨١ هـ / ١٢٨٢ م ، واستنجد ألفونسو العاشر
بالسلطان المرينى على ابنه ، وعبر أبو يوسف عبد الحق المنصور المرينى إلى
الأندلس ، والتقى مع ألفونسو العاشر بأحواز الصخرة فى كورة تاكوروبيا قرب
رندة ، ورهن تاجه لديه ، بل قبّل يده رجاء معاونته ، وقد أدى عمله هذا إلى نفور
زعماء قشتالة من ملكهم هذا ، فانضموا إلى ابنه شانجو الرابع فعزلوا ألفونسو
العاشر سنة ٦٨٢ هـ / ١٢٨٤ م فانصرف بقية أيامه إلى الدراسة والبحث
والتأليف والترجمة من العربية إلى القشتالية ، مما استحق به أن يسمّى بالملك
ألفونسو العالم . ومن المؤرخين من يقولون إن الذى لجأ إلى السلطان المرينى كان
الابن وهو شانجو الرابع الذى تمكن بمعاونة المسلمين من التغلب على أبيه وخلعه
والانفراد بالعرش .

ولم يكد الأمر يستقر لشانجو الرابع حتى بدأ يفكر فى غزو أراضى المسلمين ،
ووقع ذلك فى أيام أبى الوليد إسماعيل النصرى الذى نتحدث عنه ، فتقدمت قوات
نصرانية كبيرة نحو غرناطة بجيش ضخم يقوده دون بترو ، ودون خوان
الوصيين على ملك قشتالة الصغير وهو ألفونسو الحادى عشر الذى خلف أباه
شانجو الرابع وانضمت إلى قواتهما قوات كبيرة من الصليبيين ما بين فرنجة
وإنجليز وكان اللقاء الحاسم قرب غرناطة وفى مرجها فى ٢٠ ربيع الثانى
٧١٨ هـ / مايو ١٣١٨ م وكان شيخ الغزاة هو أبو سعيد عثمان بن أبى العلاء ،
وقد انتصر المسلمون فى هذه المعركة نصراً يعدل انتصارهم الأول عند صخرة
«عباد» ، وهكذا أثبت المسلمون أنهم قادرون على كسب النصر إذا هم اجتمعت
صفوفهم وصدقوا النية فى الجهاد ، وكان لهذه المعركة الثانية أثر بعيد فى تثبيت

أركان مملكة غرناطة التي استطاع رجالها أن يستعيدوا بعض البلاد والحصون التي كانوا قد فقدوها من قبل .

وبعد هذا النصر بقليل أُغْتِيل سلطان غرناطة أبو الوليد إسماعيل سنة ٧٢٥هـ / ١٣٢٥م ويعتبر هذا الرجل من أكفأ من تولى عرش غرناطة ، وإليه يرجع الفضل في إقامة الكثير من منشآت الحمراء .

* * *

أبو الحجاج يوسف الأول ابن أبي الوليد إسماعيل

٧٢٥ - ٧٥٥ هـ / ١٣٢٥ - ١٣٥٤ م

يعتبر هذا الرجل آخر الكبار من ملوك غرناطة ، فقد بذل أقصى جهده في المحافظة على بلاده من عدوان مملكة قشتالة ، وعلى الرغم من ملكاته الكثيرة وطول حكمه الذي مكن له من أن يقدم لمملكة غرناطة خدمات جليلة إلا أن ظروف تلك المملكة ما كانت لتساعدها على الصمود إلى النهاية وحدها أمام ضغط نصراني متزايد ، وقد جاءت العلة الكبرى في اختلاف أفراد البيت النصرى بعضهم على بعض واستعانة بعضهم بملوك قشتالة ، ثم إن العلاقات لم تكن طيبة دائماً بين سلاطين غرناطة ومشايخ الغزاة .

مشيخة الغزاة :

عقب انتصار المسلمين على النصارى في موقعة الصخرة ، استقر الاتفاق بين سلطان بنى نصر و سلطان المرينيين على أن تقام في أراضي غرناطة قوة دائمة من المقاتلين المرينيين للاشتراك في الجهاد ، وفي سبيل ذلك تنازلت مملكة غرناطة لأولئك المجاهدين المرينيين الذين سمو بالغزاة وكانت رياستهم تسمى مشيخة الغزاة ، تنازلت لهم عن الجزيرة الخضراء ومالقة وبعض مراكز أخرى لكي تكون معاير ومراكز لهم في الأندلس لكي يستطيعوا مواصلة عملهم الدينى الكبير ، وكان أول شيخ للغزاة ، هو عبد الله أبو العلاء المرينى ، وعندما توفى ذلك الرجل خلفه أبو سعيد عثمان بن أبى العلاء ، وفى أيامه أصبحت مشيخة الغزاة قوة لها أهميتها فى مملكة غرناطة ، وتدخل شيخ الغزاة فى الأمور الداخلية للمملكة و أيد بعض منافسى السلطان ، ومن ناحية أخرى نجد أن السلطان النصرى يحاول من جهته التدبير على مشيخة الغزاة ، وربما تحالف مع القوات النصرانية عليهم ، والحقيقة أن بنى مرين أصبحت لهم ، كما ذكرنا ، مصالح خاصة فى الأندلس ودخلوا فى التنافس على مصير مضيق جبل طارق مع مملكة غرناطة ، ومع مملكة قشتالة وليون ومملكة أرغون والجمهوريات الإيطالية ، وكان هذا الاختلاف فى المصالح بين المسلمين من أشد الأخطار التى تهددت مملكة غرناطة وأضعفت قواها .

وقعة طريف :

وقد تجلّى ذلك بصورة ظاهرة في لقاء حاسم وقع بين الإسلام والنصرانية في أيام أبي الحجاج يوسف بن أبي الوليد إسماعيل الذي نتجث عنه ، فقد كان هذا الرجل - كما قلنا - واسعَ المطامع جَمَّ النشاط ، وكان قد تولى أمر بني مرين السلطان أبو الحسن بن عثمان بن أبي يعقوب المريني المشهور باسم أبي الحسن، وكانت حياته سلسلة من المغامرات والوقائع في المغرب والأندلس حتى يمكن روايتها على أنها قصة من صنع الخيال .

ففى جمادى الأولى سنة ٧٤١ هـ / أكتوبر ١٣٤٠ م جمع ملك قشتالة قوات ضخمة من القشتاليين ، وانضمت إليهم قوات أخرى من الأرغونيين والبرتغاليين ، وسار الجميع ووجهتهم مدينة طريف للاستيلاء عليها بصورة نهائية لقطع الطريق بين الأندلس والمغرب ، وقد اتَّخَذَ في هذه الظروف أبو الحجاج يوسف بن نصر والسلطان أبو الحسن المريني إدراكاً منهما لأهمية تلك المعركة ، ولكن النصر لم يحالف المسلمين في ذلك اللقاء ودارت عليهم هزيمة حاسمة في تاريخ الأندلس ، هي هزيمة طريف في ٧ جمادى الأولى ٧٤١ هـ / ٣٠ أكتوبر ١٣٤٠ م وعقب تلك الهزيمة سقطت طريف وتمهد الطريق لسقوط جبل طارق والفصل النهائي بين الأندلس والمغرب .

وعلى أى حال فقد كانت هذه المعركة نهاية للمعاونة المرينية للأندلس ، وذلك بدوره قطع الأمل في أن تستطيع قوات غرناطة الثبات أمداً طويلاً ، وبعد المعركة بقليل اتجه ألفونسو الحادى عشر ملك قشتالة لحصار جبل طارق وكاد يستولى عليه لولا أن ألفونسو الحادى عشر توفى أثناء الحصار ، وقد أبدى المسلمون شهامة في تلك المناسبة ، فقد كانوا يُحاصرون القوات القشتالية المُحاصرة ، فلما بلغهم موتُ الملك أفرجوا للقوات النصرانية لتتسحب حاملةً تابوتَ الملك الميت وحيوه تحيةً عسكريةً .

وفى سنة ٨٦٧ هـ / ١٤٦٢ م سقطت قلعة جبل طارق بيد القشتاليين وبذلك أصبحت مملكة غرناطة محاصرة تماماً بالقوات النصرانية ولا سبيل إلى معاونتها ، وكان ذلك في أيام أبي عبد الله محمد بن أبى الوليد إسماعيل الملقب بالغنى بالله ، وقد طال حكم هذا الرجل إذ استمر يحكم إلى ٧٥٥ هـ / ١٣٥٤ م وكان من أقدر

ملوك غرناطة ، وفي أيامه ظهر وعمل ابن الخطيب آخر العظماء من كتاب الأندلس ومفكره ، وقد دارت على ذلك الرجل ووزيره ابن الخطيب محن طويلة ، وكثر الثائرون عليه من أهل بيته حتى اضطر إلى الهرب إلى المغرب للاستنجاد بالسلطان المريني ، ثم عاد إلى الأندلس وتمكن من استعادة عرشه ، ولكن الأمور لم تصف له قط . فقد دخل في صراع مرير وخطر مع بني سراج ، وكانوا من أكبر الأسر في مملكة غرناطة ، وقد توفي ذلك الرجل قتيلاً على يد رجل قيل إنه مخبول في يوم عيد الفطر سنة ٧٥٥ هـ / ١٩ أكتوبر ١٣٥٩ م . وإلى هذا الرجل محمد الغنى بالله يُعزى الجانب الأكبر من منشآت قصور الحمراء ، فهو الذي أنشأ باب الشريعة ومدرسة غرناطة واعتنى بحداثق جنة العريف .

ومن أكبر الرجال الذين ظهرُوا في غرناطة في ذلك العصر: الحاجب أبو النعيم رضوان وأصله من أسرى القشتاليين من أسرة نبيلة شريفة ، ولكن ذلك الغلام شَبَّ مسلماً مجاهداً في سبيل الإسلام ، وكان من أعظم رجال الدولة ، وقد عاصره ابن الخطيب ، وهو يثنى عليه ثناء طويلاً ، وأمثال أبي النعيم رضوان كثيرون في تاريخ مملكة غرناطة ، وقد قتل هذا الرجل في فراشه إذ اغتاله بعض أعداء السلطان .

تدهور مملكة غرناطة :

وبعد محمد الغنى بالله لم تعد غرناطة إلى سابق قوتها أبداً إذ تعاقب الملوك على العرش ووقعت بينهم الخلافات والحروب ، وكان كل منهم يستعين بملوك قشتالة على إخوانه ، وفي كل معركة كان المسلمون يفقدون حصوناً وبلاداً ذات أهمية حتى انتهى أمر المملكة في النهاية إلى الاقتصار على مدينة غرناطة ومدينة وادي آش وما حولهما .

وتجل ضعف مملكة غرناطة وقرب سقوطها في أيام أبي الحجاج يوسف الثاني المتوفى سنة ٧٩٤ هـ / ١٣٩٢ م ، فقد اشتد العداء بينه وبين بني سراج وانتهز ملك قشتالة الفرصة فاستولى على بلدة الزهراء المجاورة لغرناطة سنة ٨٠٩ هـ / ١٤١٧ م .

وبعد سقوط جبل طارق سنة ١٤٦٢ م على يد القائد رودريجو بونسي

ديليون الملقب بدوق مدينة سالم ، لم يعد هناك أمل في أن تظل مملكة غرناطة وقتاً طويلاً، وقد تجلّت نهايتها بوضوح سنة ٨٨٤هـ / ١٤٧٩م وهى السنة التى تم فيها الاتحاد بين الملك فرناندو الرابع ملك أرغون والمملكة إيزابيلاً الثانية ملكة قشتالة ، وكانا قد تزوجا قبل ذلك بعشر سنوات ، وكان معنى ذلك أن إسبانيا النصرانية كلها قد أصبحت كتلتين تعملان على القضاء على ما بقى للمسلمين فى شبه الجزيرة : الأولى مملكة قشتالة وأرغون وكانت تقوم بالنصيب الأكبر فى القضاء على مملكة غرناطة ، ثم مملكة البرتغال التى أتمت الاستيلاء على غرب الأندلس ، وبدأت قواتها تهاجم السواحل المغربية وتنشئ عليها مراكز عسكرية لتواصل الغزو فى أراضى المسلمين ، وقد تمكن البرتغاليون من الاستيلاء على سبتة ولكنهم تخلوا عنها لقشتالة وظلت فى أيدي الإسبان إلى اليوم .

نهاية مملكة غرناطة :

فى أواخر سنة ٨٨٧هـ تولى عرش غرناطة محمد بن أبى الحسن على ، الذى يعرف باسم أبى عبد الله أو « بو أبديل » فى النصوص النصرانية ، وكان والده أبو الحسن على قد تزوج على زوجته الحرة عائشة ، زوجة نصرانية سميت « ثريا » وأبو عبد الله هذا هو ابنها ، وكان أبو الحسن سلطاناً ضعيفاً محاطاً بالمصاعب ، تنافست النساء فى عصره على حيازة العرش لأبنائهن ، وطال النزاع بين أبى عبد الله الذى ذكرناه ، وعمه أبى عبد الله محمد بن سعد ، الملقب بالزغل أى الباسل أو الشجاع .

وبعد منافسات طويلة قرر فرناندو وإيزابيلاً القضاء نهائياً على مملكة غرناطة ، فسارا لحصارها بقوات ضخمة ، وفى النهاية عقد أبو عبد الله الزغل معاهدة التسليم مع ملكى قشتالة وليون فى ٢١ من المحرم سنة ٨٩٧هـ / نوفمبر ١٤٩١م أما دخول الملكين الكاثوليكين فرناندو وإيزابيلاً مدينة غرناطة فكان فى ٢ ربيع الأول ٨٩٧ / ٢ يناير ١٤٩٢ وهو تاريخ حاسم فى تاريخ الإسلام والغرب الأوروبى ، وقد احتفلت به البلاد النصرانية كلها وأمرت البابوية أن تقرع كنائس أوروبا كلها احتفالاً بتلك المناسبة ، ومع الأسف إننا لا نملك نصوصاً عربية تصف أواخر مملكة غرناطة ، لأن التواريخ المعتمدة تنتهى بوفاة ابن الخطيب ،

ولكننا وجدنا كتاباً مجهول المؤلف يسمى « نبذة العصر في أخبار ملوك بني نصر » . يقص علينا أطرافاً من أخبار مأساة غرناطة في أيامها الأخيرة ، وكذلك عثرنا على نص كتاب « جنة الرضا في التسليم بما قدر الله تعالى وقضى » لابن عاصم ، وكانت لدينا قبل ذلك أجزاء منه ، احتفظ بها المقرئ في « نفع الطيب » و« أزهار الرياض » .

وقد نصت معاهدة التسليم على أن يحتفظ للمسلمين في غرناطة بكل حقوقهم، وأن تظل لهم مساجدهم وأن يقيم منهم من أراد تحت العدل والإنصاف ويهاجر منهم من أراد ، ولكن النصارى ما كادوا يستولون على غرناطة حتى نسوا كل ما عاهدوا المسلمين عليه ، وكان أول ما فعلوه تحويل مسجد غرناطة إلى كنيسة ، ثم بدأت سياسة الاضطهاد لمسلمي غرناطة الذين دخلوا في جملة المدجنين أى المسلمين الذين دُجِنُوا في مواطنهم تحت حكم النصارى وقَبِلُوا حكمهم ، وقد ثار المسلمون على تلك المعاملة مرّة بعد أخرى . ولكن الأمر انتهى بطرد بقاياهم من الأندلس سنة ١٦٠٩ م ، أيام الملك فيليب الرابع ، وبذلك انتهت قصة الإسلام في شبه الجزيرة ، وإن بقيت آثاره الحضارية ماثلة إلى اليوم .

ولا يتسع المجال لدراسة تاريخ المسلمين في شبه الجزيرة الإيبيرية بعد سقوط غرناطة ، فذلك تاريخ طويل تبدلت فيه الأحوال بالنسبة لمن بقي في شبه الجزيرة على إسلامه وخضع للنصارى ، وهؤلاء هم المُدَجَّنُونَ ومن تَنَصَّرَ منهم تَنَصُّراً ظاهرياً أو حقيقياً ، وهؤلاء هم المورسكيون ، وكلا الفريقين عوملوا معاملة الأسرى وهبطوا بهم إلى مستوى الرقيق والأقنان وأصابهم الاضطهاد والإذلال ، وثاروا مرة بعد أخرى حتى صدر قرار إخراج بقاياهم من شبه الجزيرة سنة ١٦٠٩ م كما قلنا ، وقد استوفى أخبارهم الأستاذ محمد عبد الله عنان في كتابه المسمى « نهاية الأندلس » ، « وتاريخ العرب المنتصرين » وهو الجزء الأخير من تاريخه الحافل المطول للأندلس وتاريخ المسلمين فيه ، وقد اعتمد فيه أساساً على مراجع كثيرة بعضها إسباني وبعضها برتغالي ، ولكن مَعَوَّلَهُ الأكبر على التاريخ الذى كتبه المؤرخ الإنجليزي « لى » عن تاريخ محاكم التفتيش في الأندلس .